موقف كبار الصحابة من مقتل عثمان (رضي الله عنه)

د. سمير صالح حسن العمر(*)

في خضم أحداث الفتنة التي آلت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، لابدَّ من بيان حقيقة موقف كبار الصحابة ممّا حدث، ومنهم: عليّ بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعائشة (رضي الله عنها)، فهؤلاء رأس القوم، وقد حمَّلهم البعض مسؤولية ما حصل، ومنهم سعد بن أبي وقاص الذي قال: " قتل عثمان (رضي الله عنه) بسيف سلته عائشة (رضي الله عنها) وشجنه طلحة (رضي الله عنه) وسمّه ابن أبي طالب (رضي الله عنه) ... (أمّا) الزبير ... فسكت ... وامسكنا ولو شئنا لرفعنا [١]"

وقال محمد بن طلحة: " إنّ دم عثمان (رضي الله عنه) على ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبة الخدر، يعني: عائشة (رضي الله عنها) ...، وثلث على عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وثلث على صاحب الجمل الأحمر ... يعني: أباه"[٢].

وهكذا فمن الضروري توضيح موقف كلّ من هؤلاء؛ لبيان مدى مصداقية الاتهام.

(*) كلية الآداب / جامعة الكوفة.

(١) ابن شبة، أبو زيد عمر النميري (ت ٢٦٢هـ / ٨٧٥م)، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، (مكة المكرمة ـ ١٩٧٩م)، ٤ / ١١٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ٤ / ٧٣ ـ ١١٧٤.

أما عليّ (رضي الله عنه) فكان منافساً قوياً لعثمان (رضي الله عنه) على الخلافة، بعد وفاة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[٣]، وكان له نداً أثناء خلافته، فعارضه في بعض القضايا الفقهيّة، ومنها: ان عثمان (رضي الله عنه) اعتمر في رجب عام ٢٦هـ / ٦٤٧م، فقال علي (رضي الله عنه): ((ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر في رجب، وما اعتمر عمر (رضي الله عنه) ... إلا في ذي القعدة))[٤]

ولا ريب أن مثل هذه المعارضة كانت تزعج عثمان (رضي الله عنه) ـ فشكاه إلى العباس (رضي الله عنه) فقال: ((أنا منه كأبي العاق، إن عاش عقه، وإن مات فجعه)) [٥].

إن هذه المعارضة ـ السلمية ـ رسمت توتراً وتذبذباً في العلاقة بينهما حتى إن ابن عباس ـ بعد توسطه بينهما ـ قال: ((لا سبيل إلى صلحهما))[٦].

---

(٣) الزهري، محمد بن مسلم (ت ١٢٤هـ / ٧٤١م) ، المغازي النبوية تحقيق: سهيل زكار، (دمشق ـ ١٩٨١م) ، / ١٤٥.

(٤) البستي، محمد بن حبان (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م)، الثقات، (حيدر اباد ـ الدكن ـ ٧٣ ـ ١٩٧٨م)، ٢ / ٢٤٧.

(٥) ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت / ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)، عيون الأخبار، (القاهرة ـ ٦٣ ـ ١٩٦٤م)، ٣ / ٩٢.

(٦) ابن بكار، أبو عبد الله الزبير (ت / ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي العاني، (بغداد ـ ١٩٧٢م)، / ٦١٧.

وكان عليّ (رضي الله عنه) يرى أنّ عثمان (رضي الله عنه) ((ولي فاستأثر))[٧] وقصّر عن سنة أبي بكر وعمر (رضي الله عنه)[٨]. وبذلك اصبح عليّ (رضي الله عنه) معارضا لسياسة عثمان (رضي الله عنه) [٩].

ولا يعني هذا تمردا على سلطة الخليفة. فعليّ (رضي الله عنه) يقول: ((لو سيرني عثمان (رضي الله عنه) إلى صرار لسمعت وأطعت الأمر))[١٠]. ويذكر أن عثمان (رضي الله عنه) عاتبه يوما، فاطرق ولم يجبه، فسأله عثمان (رضي الله عنه) عن سبب صمته، فقال عليّ (رضي الله عنه): ((إنْ قلت لم اقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب))[١١].

ويذكر أن محمد بن الحنفية قال: ((ما سمعت عليّاً (رضي الله عنه) ذاكراً عثمان بسوء قط))[١٢] وكان عليٌّ (رضي الله عنه) يمتدح عثمان

---

(٧) ابن شبة، المصدر السابق، ٤ / ١١٦٨.

(٨) البيهقي، ابراهيم بن محمد (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م)، المحاسن والمساوي، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، (القاهرة _ ١٩٦١م)، ١ / ٨٠.

(٩) البلاذري، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، انساب الاشراف، تحقيق: جويتين، (القدس _ ١٩٣٦م)، ٥ / ٥٧ وما بعدها.

(١٠) ابن شبة، المصدر السابق، ٤ / ١٢٠١.

وصرار موضع على ثلاثة اميال من المدينة على طريق العراق. ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، (بيروت _ ١٩٧٧م)، ٣ / ٣٩٨.

(١١) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٩م)، الكامل في اللغة والأدب، دار العهد الجديد (القاهرة _ بلات، ١ / ١٣).

(١٢) ابن عساكر، علي بن الحسن (٥٧١هـ / ١١٧٥م)، " عثمان بن عفان (رضي الله عنه) " جزء خاص من تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سكينة الشهابي، (دمشق _ ١٩٨٤م)، / ٢٦٤.

(رضي الله عنه) بقوله: إنه ((أوصلنا للرحم، واتقانا للربّ))[١٣]. أما ما قيل من أن أم حبيبة (رضي الله عنها) قالت لعليّ (رضي الله عنه) : ((أجر لي من في الدار. قال: نعم. إلا نعثلاً))[١٤] فإنّ مثل عليّ (رضي الله عنه) لا يخالف قول الله تعالى: ((ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان)) (الحجرات: ١١).

أما الاتهامات التي وجّهت إليه بالتأليب على عثمان (رضي الله عنه)[١٥]، واتهام عائشة (رضي الله عنها) له بقتل عثمان (رضي الله عنه)[١٦]، وكذلك اتهام طلحة له[١٧]، واتهام معاوية بن أبي سفيان إيّاه أيضا[١٨]. فيمكن إرجاعها لدوافع شخصيّة وسياسيّة.

ويمكن تبرئته مما نسب إليه من خلال ردّ ابن عمر حين سئل:

((هل شرك علي (رضي الله عنه) في دم عثمان (رضي الله عنه)،؟ فقال: لا والله ما علمت ذلك في سرّ ولا علانية، لكنه كان رأساً يفزع إليه، فالحق به ما لم يكن))[١٩]

---

(١٣) المصدر نفسه، / ٤٧٩.

(١٤) ابن شبة، المصدر السابق، ٤ / ١١٦٧.

(١٥) البلاذرى، المصدر السابق، ٥ / ٦٢.

(١٦) المصدر نفسه، ٥ / ٩١.

(١٧) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، الأغاني، (القاهرة ـ ١٩٧٣م)، ١٦ / ٢٣٤.

(١٨) المنقرى، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م)، وقعه صفين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة ـ ١٩٦٢م)، / ٢٩.

(١٩) البلاذرى، المصدر السابق، ٥ / ٩٩.

ويذكر البلاذريّ أنّ محمد بن سيرين قال: ((لقد قتل عثمان (رضي الله عنه) يوم قتل، وما أحد يتهم عليّاً في قتله))[٢٠] لكنه ((لمّا بويع اتهمه الناس)).[٢١]

ويروي المقريّ أنّ عبيد الله بن عمر قام خطيباً بين يديّ معاوية، ((حتّى إذا أتى أمر عليّ (رضي الله عنه) امسك ولم يقل شيئا. فقال له معاوية: ابن أخي انك بين عني أو خيانة... (فقال): كرهت أنْ اقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان (رضي الله عنه)، وعرفت أنّ الناس يحتملونها عني فتركتها))[٢٢] وشهادة عبيدالله هذه لها قيمتها، لأنه لم يكن على وفاق مع علي (رضي الله عنه) الذي كان يسعى للإفادة من عبيد الله، لقتله الهرمزان.[٢٣]

ويذكر ابن سعد عن ابن عباس أنّ عليّاً (رضي الله عنه) قال: ((والله ما قتلت ولا أمرت ولكن غلبت))[٢٤] ولا ريب أنه لا يقسم بهتانا، وهو من تربى في أحضان النبيّ (صلى الله عليه وسلم)، وتشرب بأخلاقه الكريمة.

---

(٢٠) المصدر نفسه، ٥ / ١٠٠.

(٢١) ابن عبد ربه، ابو عمر احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)، العقد الفريد، تحقيق: احمد امين واخرون، (القاهرة - / ١٩٥٣)، ٤ / ٣٠٥.

(٢٢) المنقري، المصدر السابق، / ٨٣.

(٢٣) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (بيروت - / ١٩٧٨م)، ٢ / ٣٧٨

(٢٤) ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م ، الطبقات الكبرى، تحقيق: ادور ساخار واخرون، (القاهرة – ١٩٦٨م)، ٣ / ١ / ٥٧.

وأما قوله ((إن الله قتله وأنا معه ... (فان) محمد بن سيرين قال: كلمة عربية لها وجهان، أي: وسيقتلني معه)).[٢٥]

وهكذا تتضح براءة علي (رضي الله عنه) من دم عثمان (رضي الله عنه)، ولكن ينسب إليه التغافل عن نصرة الخليفة عثمان (رضي الله عنه) الذي واجه مصيره دون تدخل من عليّ (رضي الله عنه)[٢٦] فيذكر أنّ عثمان (رضي الله عنه)، أرسل إلى عليّ (رضي الله عنه) يستنجده:

((فإن كنتُ مأكولاً فكُنْ خيرَ آكلٍ وإلا فأدْركني ولمّا امزّقِ))[٢٧]

وبرر عليّ (رضي الله عنه) عدم تدخله في الأمر بقوله: ((لو استنصرنا نصرناه، ولكنه عزم علينا الا نفعل))[٢٨] فلو قاتلنا دونه عصينا))[٢٩]

ومهما يكن أمر هذا التسويغ، فإنه لا بدّ من التسليم بأنّ الأحداث آلت إلى " حيث لا ينفع الدفاع ... فقد كان الأمر قد فسد فساداً لا يرجى صلاحه".[٣٠]

---

(٢٥) ابن قتيبة، المصدر السابق، ٢ / ٢٠٧.

(٢٦) ابن شبه، المصدر السابق، ٤ / ١٢٣٤.

(٢٧) ابن قتيبة، المصدر السابق، ١ / ٣٤.

(٢٨) ابن شبه، المصدر السابق، ٤ / ١٢١٤.

(٢٩) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٤ / ٣٠٢

(٣٠) ابن ابي حديد، ابو حامد عبد الحميد (ت ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧م)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: نور الدين شرف الدين ومحمد خليل الدين، (بيروت ـ ١٩٥٦م)، ٢ / ٦٠٢.

ومع ذلك فإنّ عليّاً (رضي الله عنه) حاول نصرته لكنّ ذويه " تعلقوا به ومنعوه"[٣١] خوفاً عليه. كما يذكر إن المحاصرين " وضعوا على عليّ (رضي الله عنه) رقيباً في نفر فلازمه، ورقيبه خالد بن ملجم"[٣٢] ويؤكد ذلك قول علي (رضي الله عنه) للحسن (رضي الله عنه).

" أيْ بنيّ ما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان (رضي الله عنه) فو الله لقد أحيط بنا كما أحيط به "[٣٣] . وعندما أيقن عليّ (رضي الله عنه) بعجزه عن مناصرة عثمان (رضي الله عنه) أرسل ولديه: الحسن والحسين (رضي الله عنهما) لحماية دار عثمان (رضي الله عنه) والدفاع عنه[٣٤]

أمّا طلحة بن عبيد الله (رضي الله عنه) فيذكر أنّه " كان أشدّ الصحابة على عثمان (رضي الله عنه)"[٣٥] حتى انه منع إدخال الماء إليه،[٣٦] و " منع من دفنه ثلاثة أيام "[٣٧] واتهمه عليّ (رضي الله عنه)

(٣١) ابن سعد، المصدر السابق، ٣ / ١ / ٤٧.

(٣٢) ابن عساكر، المصدر السابق، / ٤٣٨.

(٣٣) الطبي، سيف بن عمر (ت ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م)، الفتنة ووقعة الجمل، جمع وتصنيف: احمد راتب عرموش، (بيروت _ ١٩٧٧ م)، / ١٢٠.

(٣٤) ابن شبه، المصدر السابق، ٤ / ١٣٠٤.

(٣٥) ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، (القاهرة _ ١٩٨٠)، / ٢٢٨.

(٣٦) البلاذري، المصدر السابق، ٥ / ٨١.

(٣٧) ابن أبي حديد، المصدر السابق، ٢ / ٧٦٩.

بدم عثمان (رضي الله عنه)،[٣٨] كما اتهمه بني أمية بذلك أيضا [٣٩] واقل ما ينسب إليه انه قصَّر في نصرة الخليفة، كبقية الصحابة[٤٠].

اما شدته على عثمان (رضي الله عنه) فإنه كغيره ممن انتقد سياسة عثمان (رضي الله عنه) ويبدو أنه شعر بالندم فجاء إلى الخليفة واعتذر عمّا بدر منه[٤١].

وللرد على ما نسب إليه في منع الماء عن الخليفة. فإن هناك من تولى هذا الأمر دونه، ولا مبرر لقيامه بذلك. ناهيك عن محاولته في إيصال روايا الماء إلى عثمان فمنعه عمار بن ياسر (رضي الله عنه) وقال: "والذي نفسي بيده لا تصل إليه حتى تقتلني أو أقتلك. فقال طلحة (رضي الله عنه): ما احب ان تقتلني ولا أقتلك. فتركها".[٤٢]

أما منعه لدفن عثمان (رضي الله عنه)، فانه لا يذكر في المصادر التاريخية القديمة، بل ورد في المتأخر منها – كابن أبي حديد – ثم إن المرجح تاريخيا ان عثمان (رضي الله عنه) دفن في ليلته.[٤٣]

أما اتهامه بدم عثمان (رضي الله عنه) فيبدو أنه جزء من حالة الصراع على السلطة، ورد فعل على معارضته لسياسة عثمان (رضي الله عنه)، وتقصيره في

---

(٣٨) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة – ١٩٧٧ م)، ٤ / ٥٠٩.

(٣٩) ابن خياط، خليفة (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار (دمشق – ١٩٦٨ م)، ١ / ٢٠٥.

(٤٠) البلاذري، المصدر السابق، ٥ / ٩٧.

(٤١) المصدر نفسه، ٥ / ٧٨.

(٤٢) ابن شبه، المصدر السابق، ٤ / ١٢٠٣.

(٤٣) المصدر نفسه، ٤ / ١٢٤١.

نصرته للخليفة، رغم إن تقصيره كان رهنا بالظروف آنذاك. فيذكر أن مدبري الفتنة وضعوا عليه "رقيباً في نفر فلازمه ورقيبه سودان بن حمران"[٤٤]. كما أن طلحة (رضي الله عنه) عندما بلغه ما لقي عليّ (رضي الله عنه) وأم حبيبة (رضي الله عنها) لزم بيته،[٤٥] وأرسل ابنه محمد ؛ ليدافع عن الخليفة.[٤٦]

ومع ذلك فإن طلحة (رضي الله عنه) عاش بعد عثمان (رضي الله عنه) ندماً دفعه إلى القول: " اللهم أعط عثمان (رضي الله عنه) مني اليوم حتى ترضى"[٤٧] وكان يقول: " اللهم لا اعلم عثمان (رضي الله عنه) إلا مظلوما "[٤٨].

أما الزبير بن العوام (رضي الله عنه)، فيذكر أنه وطلحة (رضي الله عنه) " استوليا على الأمر "[٤٩] في فترة الحصار، واستطاع عليّ (رضي الله عنه) أن يسحب البساط من تحت أقدامهما بتفريق الناس [٥٠] ممّا يوحي بأن الصراع على السلطة قد بدأ قبل مقتل الخليفة، حتى ان عليّاً (رضي الله عنه) اتهمه بدم عثمان (رضي الله عنه) فيما بعد [٥١].

---

(٤٤) ابن عساكر، المصدر السابق، / ٤٣٨.

(٤٥) الطبري، المصدر السابق، ٤ / ٨٦ _ ٤٨٧.

(٤٦) ابن شبه، المصدر السابق، ٤ / ١٣٠٤.

(٤٧) المصدر نفسه، ٤ / ١١٦٩.

(٤٨) ابن عساكر، المصدر السابق، / ٣٤٤.

(٤٩) البلاذري، المصدر السابق، ٥ / ٩٠

(٥٠) المصدر نفسه ، ٥ / ٧٨.

(٥١) المصدر نفسه، ٥ / ١٠٥

ولا ريب ان الزبير (رضي الله عنه)، كغيره من الصحابة، قصّر في الدفاع عن الخليفة[٥٢]، إذ لزم بيته بعد أن بلغه ما لقي عليّ (رضي الله عنه) وأم حبيبة (رضي الله عنها)[٥٣]، كما ان قادة الفتنة وضعوا " على الزبير (رضي الله عنه) رقيباً في نفر فلازمه ورقيبه قثيرة (السكوني)"[٥٤].

ومع ذلك فإن الزبير (رضي الله عنه) عرض على الخليفة كتيبة للدفاع عنه، ولكنّ الخليفة منعه من ذلك، فأرسل ابنه عبد الله، للذود عن الخليفة[٥٥]. فاستخلفه عثمان (رضي الله عنه) على آهل الدار يوم استشهاده[٥٦].

ويبدو أنّ علاقة عثمان (رضي الله عنه) بالزبير (رضي الله عنه) كانت أقوى من علاقته بغيره من الصحابة، لذا عهد إليه بوصيته[٥٧].

أما عائشة (رضي الله عنها) فاتهمت بأنها كتبت إلى آهل الأمصار تستجلبهم ضد عثمان (رضي الله عنه).

فقالت: ((لا والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم

---

(٥٢) المصدر السابق، ٥ / ٩٧.

(٥٣) الطبري، المصدر السابق، ٤ / ٤٨٧.

(٥٤) ابن عساكر، المصدر السابق، / ٤٣٨.

(٥٥) ابن شبه، المصدر السابق، ٤ / ١٣٠٤

(٥٦) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٤ / ٤١٨.

(٥٧) الزبيزى، المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦ هـ / ٨٥١ م)، نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، (القاهرة ـ ١٩٥٣ م)، / ١٠٦.

بسوداء في بيضاء))[٥٨] مما يوحي بأن رؤوس الفتنة زوروا كُتُبا باسمها، وأرسلوها إلى الأمصار.

واتهمت بأنها ألّبت على عثمان (رضي الله عنه) وشجعت على قتله. فقالت: " معاذ الله أنْ أمر بسفك دماء المسلمين، وقتل إمامهم، واستحلال حرمتهم".[٥٩]

ونسب إليها التقصير في مناصرة الخليفة، ولكنها سوّغت ذلك بقولها: "أما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلن"[٦٠] وحين طلب منها مروان بن الحكم البقاء في المدينة، لعل ذلك ينقذ الموقف، قالت: ((أتريد أن يُصنَعَ بي كما صنع بأم حبيبة (رضي الله عنه) ثمّ لا أجد من يمنعني، لا والله ولا اعير ولا ادري الام يسلم أمر هؤلاء)).[٦١]

ويبدو من ذلك أنها كانت تخشى على نفسها من غوغاء الفتنة. فخرجت إلى مكة للحج خلاصا من المأزق ،ولما سمعت بقتله غضبت له وقالت: ((قتل مظلوما ولعن الله قتلته))[٦٢] و((لعن الله من لعنه))[٦٣].

ويذكر أنّ بعضا ممن يعرف مدى معارضتها لسياسة عثمان (رضي الله عنه) استغرب موقفها هذا. فاستفسر عن سرّ غضبها. فقالت: ((غضبت لكم من

---

(٥٨) ابن سعد، المصدر السابق، ٣ / ١ / ٥٧.

(٥٩) البلاذري، المصدر السابق، ٥ / ١٠٢.

(٦٠) البري، المصدر السابق، ٤ / ٣٨٦.

(٦١) م . ن

(٦٢) ابن شبه، المصدر السابق، ٤ / ١٢٤٤

(٦٣) المحب الطبري، أبو جعفر احمد (ت ٦٩٤ هـ ١٢٩٤ م)، الرياض النضرة في مناقب العشرة، (القاهرة _ ١٩٥٣ م)، ٢ / ١٢٩.

السوط ، ولا اغضب لعثمان (رضي الله عنه) من السيف؟! إستعتبتموه حتى إذا تركتموه كالقلب المصفى قتلتموه)).[٦٤]

ولا ريب إن انتقاد الصحابة لسياسة عثمان (رضي الله عنه) ومعارضته في بعض الأمور الفقهيّة علناً، أعطى فرصة لنمو روح التمرد على السلطة، فاستغلتها عناصر الفتنة بدهاء وخبث.

ومسك الختام في براءة الصحابة الأجلاء قوله تعالى :

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم..." (الفتح: ٢٨)

أفبعد قول الله تعالى قول.

(٦٤) ابن خياط، المصدر السابق، ١ / ١٩١.